الرواية الكولونيالية الإسبانية

-أنطونيو كاراسكو غونثالث*

-ترجمة: إدريس الجبروني

مراحل الرواية الكولونيالية الإسبانية حول المغرب

كان للعلاقات الإسبانية المغربية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، و النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، انعكاس على الرواية الإسبانية. لكن هناك اختلاف في الاهتمام و النتائج، و الموضوع، و وجهة النظر، و في النوايا و الغايات، حيث من الصعوبة بمكان إيجاد ما هو مشترك بينها، وما هو أبعد من السيناريو، و لكن بإمكاننا وضع منهجية تقوم على مراحل. و في جميع الحالات، قبل البدء في الموضوع، سيكون من الضروري الإشارة بصفة عامة، إلى أن الأدب الإسباني حول المغرب يقوم على الوهم. إن الرؤى التي كانت عند الكتاب الإسبان حول المغرب في عهد الاستعمار مختلفة و متعارضة؛ و ملقنة دائما بالمسافة التي تبعد الأوربي عن الإفريقي (المغربي)، و حتى عند أولائك الكتاب الذين يظهرون تفهما نحو المغاربة. يفترض الوهم زيف جزء كبير من الحالات التي تطرح في الكتب الإسبانية، و غياب الموضوعية عند إبراز البعض و البعض الآخر. هناك بطولة مبالغ فيها، والمبالغة في القساوة المختلقة. إن الوهم هو إيحاء، و تشويه، و خيال لتشويه الواقع، لا أقل ولا أكثر. إنه الشعور بأن يكون الغير، وأن يحل محل الآخر، و في مناسبات كثيرة الشعور بالتفوق، و بالإورمركزية، أو ما أطلق عليه المستعمرين الإنجليز "جينغويزم" (الشوفينية، الوطنية المتطرفة، التي تقول بالتوسع عن طريق العنف للسيطرة على الأمم الأخرى). و إجمالا، يمكننا التذكير برأي إدوار سعيد: الشرق دائما ابتدعه و اختلقه الغرب. هناك دائما وهم، أي صورة مزيفة، كرد على فهم إيديولوجي للحظة الكولونيالية نفسها، و الذوق الجمالي أو الرغبة الدعائية. إنه وهم، لأن المغرب بالنسبة للبعض يكاد يكون عالما متخيلا، حيث يسع لمغامرات لا يقبلها العقل و لا المنطق، أرض لبناء الأحلام، تبعد على مسافة 12 كلم. و بالنسبة للآخرين كان هذا البعد يصلح للتأمل حول الوضعية الإنسانية عامة، أو التأمل حول مشاكل وطنهم ذاته، مع استعمال كعذر وضعية تستغل لتفسير قواعد عامة، لما حدث أو ما كانوا يتمنون أن يحدث، صادر عن عمل خاطئ، أو الإصلاح و التجديد. لنلقي نظرة على تطور الرواية الإسبانية حول المغرب:

المرحلة الأولى : الاستشراق الذي لا يمكن تجنبه.

يمكننا أخذ التعبير الاستشراقي كاكتشاف جمالي للعالم الإسلامي، و هو اكتشاف منح الجديد للموضوعات التي تتضمن بعض الألغاز، و الفانتازيا، و الغرائبية، و هو ما سيسمح بطريقة ما، خلق عالم متخيل، واقع في عالم موجود، فاقد لفضائله و خصائصه. و أكثر من ذلك، يمكن القول أنه جمع أولائك الذين كانو يجهلون تقريبا كل شيء عن العالم المغاربي، و بنوه حسب رغباتهم و إراداتهم، و أولائك الذين يعرفونه بطريقة أقل أو أكثر، وعملوا كذلك بطريقة إرادية على تشويهه. بدأت المرحلة الأولى مع حرب تطوان سنة 1858، وامتدت إلى سنة 1909(حرب مليلية). تميزت هذه المرحلة بانعدام المعرفة و البروباغندا، و المزاعم التوسعية الترابية الإسبانية. و كان المقام والحالات المحكية تصل إلى هذيان، و هراء حقيقي، مليء بعدم ضبط التسلسل التاريخي، و انعدام الدقة، و الجهل و الافتعال الزائف. إنها نتيجة أدبية لدعاية مفرطة و مبالغ فيها، رأت في الحرب الخارجية طريقة لتجاوز النزاعات الخارجية، و في ذات الوقت انبرت للدفاع عن توجه اندفاعي استعماري جديد.

و هكذا نجد روايات ذات قيمة أدبية قليلة، مثل "مغاربة الريف"، أو "سجين الحسيمة"، للكاتب "بيدرو موطا" (1856). "الصليب و الهلال"، أو "حرب المغرب" (1860)، للكاتب "كوبيرو"، "شرف إسبانيا"(1859) للكاتب "رفائيل ديل كاستيو"، أو "رودريغو و سلمى"، أو "احتلال تطوان" (1862)، للكاتب أنطونيو ريدوندو.

و مع ذلك يبدي الكاتب بيريث غالدوس، الشك حول الوهم المغربي المليء باللمعان الزائف، عندما نشر فصلا من الأحداث الوطنية "عيطة تطاون" سنة 1905، هذا الكاتب، ملاحظ دقيق و يقظ بالواقع التاريخي الإسباني، كان يعرف نتيجة حرب 1893 (حرب مليلية التوسعية)، و تداعيات توسع مدينة مليلية. وكان من ثمار هذه الرؤية الواسعة أن رشح عنها التشاؤم، و الإنذار حول طعم الوهم الزائف.

و مع ذلك استمر الاستشراق كنزعة جمالية، استغلها كتاب الحداثة الإسبان الجدد؛ مثل الكاتب اسحاق مونيوث. إن هذا الكاتب كانت له معرفة تامة بالبلد و بلغته، لكنه كان يهتم بمشهد غير واقعي عندما كان يصف ما هو واقعي و حقيقي. و كل ذلك من أجل أن يفرغ شحنة رؤيته حول الحياة المأساوية، و العنف، و العاطفة، و بعيدا عن الأخلاق الكاثوليكية الصارمة و الملزمة، كان يتخيل أن هذا البلد من الضفة الأخرى هو أكثر حرية، و أقل تشبثا بالعادات. و هكذا نشر رواية "حفل الدم"(1909)، أو "بعيدة و ضائعة"(1913). لكن الاستشراق استمر بإصرار، و قوة مع كتاب مثل بيدرو و ماكسميليانو رايدا، أو

أنطونيو بيرا سالاس. و بعد سنة 1921(معركة أنوال)، و هي السنة التي وقع فيها تغيير في العقلية الإسبانية نحو المغرب، نجد رواية "نعمة، سلطانة القصر الكبير"(1925)، للكاتب الفرنسيسكاني خوصي ماريا لوبيث، و رواية "عائشة" (1925)، للعسكري "لويس بيريث لوثانو"، أو "عن الأراضي المغربية" (1923) للصحفي أنطونيو أولميدو.

المرحلة الثانية : الألم يتجاوز الغرائبية.

لقد كشفت الحرب التي دمرت المنطقة الشرقية من منطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب، ما بين 1909 و 1913، عن الوجه القاسي للمغامرة الاستعمارية. إن المعاناة التي سببتها للقوات الإسبانية جعلتهم يدركون أن احتلال المغرب لن يكون نزهة عسكرية. و أوضحت بجلاء مظهرا لن ينساه الإسبان أبدا: الشجاعة العسكرية التي يتميز بها أهل الريف. و بالنسبة لأحسن عقلية كولونيالية سيظل المغربي بالنسبة للإسباني متوحشا، و متخلفا، و غير متحضر، الخ... و لكن لن يكون بعد الآن محاربا بدائيا، بل جنديا صارما، و فعالا، و يصيب الهدف، و مستعد للتضحية. مع التغيير في شكل النظرة إلى العدو، تم القبول، على الأقل ببعض صفاته؛ و لكن، يجب أن لا ننسى أن مدح العدو، يعني كذلك إضفاء قيمة أكبر على الأعمال الخاصة. لكن هذه المرحلة هي التي لم يتم استغلالها من طرف كتاب الرواية الإسبانية. و لم تسرد سردا جيدا الحملات العسكرية؛ رغم أنه نشرت أحسن مدونات الوقائع الإخبارية لمؤلفين مثل ريبيرا، و كالبوا، و كورال كابايي، أو غاييغو راموس. و لم تتم الاستفادة من ظروف قابلة لكتابة الرواية، كوصول الإسبان الأوائل، الذين أقاموا في أراضي صعبة، أو الشخصية فوق العادة التي كان يتميز بها القائد العسكري و الديني "مزيان" الذي حارب إسبانيا. هذا القائد، خلافا للروكي بوحمارة أو الريسوني، لم يسبق أن كان موضوعا للخيال الأدبي. ليست كافية بعض الروايات القصيرة لملء هذا الفراغ كرواية "شحنة أجدير" (1914) للكاتب "رويث ألبينيث"، أو "في الحرب" (1909) للكاتب "كولومبيني".

المرحلة الثالثة : طور أنوال.

استمر الكتاب الإسبان في حكيهم حول المغرب بجهل كبير للواقع. كان ذلك في جزء منه بسبب الغرائبية المستمرة عندهم بإلحاح، و الرغبة برسم ما هو مختلف، و الاستمتاع باكتشاف أسباب، أو مواضيع أو سيناريوهات تضفي أصالة على الحكايات. كانت في جزء منها متأصلة على دعاية، بطريقة واعية أم لا على القضية الكولونيالية. و من جانب آخر، و في نهاية المطاف، يجب البحث عن سبب الجهل الكبير بهذا البلد. إن الهزيمة التي تكبدها الإسبان في **معركة أنوال**، و الانهيار التالي لقيادة الجيش الإسباني بمدينة مليلية، و الانسحاب من مدينة الشاون، و الدفاع عن تطوان، غيرت الرؤية التفاؤلية التي كانت عند

الإسباني المتوسط. لقد تسببت هذه الحملة في إحداث رجة كبيرة في المجتمع الإسباني، أدت إلى أزمة سياسية و اجتماعية حقيقية. و طرحت في المجتمع الإسباني سجالا كولونياليا جديدا، تميز بنزعة يسارية قوية، رافضة للعمل السياسي الحكومي الذي يقوم على حزم استعماري. و ستبرز المفارقة عندما سيصل اليسار إلى الحكم، بعد أن تمت تهدئة المغرب، لم يعمل اليسار الإسباني إطلاقا على انسحاب إسبانيا من الأراضي الإفريقية (المغرب). و من وجهة النظر الأدبية، ستتقوى النزعة الحربية، و هي دالة عند الكتاب الإسبان حول المغرب. كان لها اختياران:

أ) الكتاب الذين يراهنون بحزم على التخلي و الانسحاب من منطقة الحماية الإسبانية من شمال المغرب. و هذه المسألة كانت حاضرة عند الرأي العام الإسباني، و في أعمال بعض كتاب المواضيع السياسية، و خاصة، انطلاقا من سنة 1909، و لكن، لم يكن ذلك قد انعكس على الرواية.

ب) الكتاب الذين كان اختيارهم صريحا، و هو استمرار عمل الحماية، و إنزال العقاب بالعدو الريفي، و إنجاز الاحتلال الكامل.

و حول الكتاب الأوائل، يجب توضيح بعض القضايا التي في كثير من الأحيان تقوم على أخطاء. في المقام الأول، هم كتاب يتأملون حول حالة الأمة الإسبانية، و ينتقدون النظام الوطني. أصيبوا بخيبة الأمل، لا يعتقدون أن التوسع في (إفريقيا) المغرب له فوائد لإسبانيا، نظرا لثمنه الباهض، و يشتكون من معاناة الجنود الإسبان: سوء العناية بهم، ليسوا مهيئين، ليست لهم جهوزية، سوء التغذية، و يتحملون جسديا ثقل الحملات العسكرية في سياسة لا تنفعهم في شيء. و تحولت معركة أنوال بالنسبة لهذا الجيل من الكتاب إلى مثل جيل 98. يرفضون النزعة العسكرتارية كقوة تدير شؤون البلاد.

فهم ينتقدون أساسا إسبانيا، و هذا لا يعني أنهم يقفون إلى جانب المغرب، الذي يتفهمون موقفه من الغزو الأجنبي، و لكنه، بالنسبة إليهم ما زالوا يعتبرونه عدوا. و في هذا الباب يمكننا ضم حكايات هذا الحدث: رواية "إيمان" (1930) للكاتب رامون خ. سيندير، و "مسار انصهار متمرد"(1951) للكاتب أرطورو باريا و"الحصن الخشبي"(1928) للكاتب خوصي دياث فيرناندیث.

هؤلاء الكتاب لا يضعون أنفسهم في جلد الريفي، و لا يحاولون حتى النظر إلى هذه الوضعية من وجهة نظرهم. كانوا يرفضون كل ما كان يحدث في إسبانيا، و لكن انطلاقا من موقف إسباني. و لذلك لا يمكن مؤاخذتهم على أن تكون لهم رؤية

صائبة و حقيقية عن المستعمَر، لا يبحثون عن ذلك، و هنا يتحدد وهمهم: المغرب و سكانه ليسوا شأنهم الرئيسي، بل هو ذريعة للرقابة. هذه النبرة استمرت عند كتاب آخرين معاصرين و اللاحقين الذين عالجوا حرب المغرب، "مثل قصة أسير" (1966) للكاتب خ. أ. غايا نونيو، و "القبيلة" (1980) للكاتب فيرناندو غونثاليث، و فيما بعد "إتثرا" (1993) لماريا شارليس، و "أيام النور" (1994) لإدوردو باليرو، أو "أحد منا" (2001) للورينثو سيلبا.

تضم المجموعة الثانية، الكتاب الذين أدركوا أن رد فعل الإسبان يجب أن يكون حربيا، رد الهجوم لتحقيق النصر، و غسل العار بالدم و إتمام العمل الذي عانينا فيه فقط انتكاسة هامة، و لكن ليست نهائية. و أولائك الذين يفهمون أن البقاء في المغرب هي مهمة و التزام دولي، و أن النصر سيتحقق بالتهدئة التي ستكون نصرا للشعب الإسباني بعد إصلاحه و تجديده. من الأعمال الروائية لهذه المجموعة، "الكلب الرومي"(1922) لبكتور رويث ألبينيث، "لا أريد أن أموت" (1924) لأنطونيو كاسيس، "نحن الذين التحقنا باللفيف" (1932)، لأسينخو ألونسو، و "يامنة" (1933) لثيلدونيو نيغرييو، و "مكتوب" (1926) لغريغوريو كوراشانو، أو "لونا دي تطاون"، لألفريدو كارمونا.

لكن كلاهما وقعا في نفس الخطأ: لم تكن نية المجموعتين كتابة الرواية حول الواقع المغربي بتجرد و موضوعية، بل إعطاء رؤية إسبانية خصوصية، تكون فيها صورة المغربي ضعيفة، لا أهمية له حسب المعيار الخاص بالكاتب، و إسقاط على المغرب سبب تقسيم إسبانيا إلى إسبانيتين، و هي الوضعية التي ستؤدي بعد سنوات إلى الحرب الأهلية.

و الدليل على الاهتمام الذي أيقظته هذه الأحداث لدى الجمهور الإسباني، هو ظهور عدد لا بأس به من الروايات القصيرة. كانت وسيلة شعبية للتسلية، فكان القارىء الإسباني يكتتب في سلسلات كتب مختارة يتوصل بها في بيته دون اطلاعه على ما سينشر. و كان الناشرون يضمنون نجاح منشوراتهم من خلال اختيار أسماء بعض الكتاب، و في بعض الحالات يختارون الموضوع. و في هذا الباب يمكننا ذكر: يوميات جندي من اللفيف(1922) لخوان فيراغوط، و "بطل اللفيف"(1921) لكاباييرو أوداث، و"تحت شمس العدو"(1921)، لأويوس بينسينط، و "فرسان الكانطرا" (1922)، لأنطونيو ليثاما، و "جمال اللفيف"(1922) لكارلوس ميكو، و"امرأة البطل"(1924) لرودولفو بينياس، و"شغف المورو"(1925) لمارغريطا أسطراي، أو "نسور من فولاذ" (1926) للوبيث ريبندا.

المرحلة الرابعة : منطقة الحماية بعد حرب التهدئة

لم تعرف إسبانيا أدبا حقيقيا كولونياليا إفريقيا، أي صادر عن كتاب ولدوا أو أقاموا في المستعمرات، بل كان هناك أدباً حول المستعمرات، كتبه أدباء من شبه الجزيرة الإيبيرية. و لهذا نجد صعوبة في العثور في الروايات الكولونيالية الإسبانوإفريقية على حكاية عن الحياة اليومية الكولونيالية، رغم أن هناك غزارة حول سرد الأحداث الحربية. في الرواية الإسبانية لم يدرك الكتاب فرصة نسخ تلاقي اللغات، و الأجناس و الأديان؛ و اختلاط الثقافات و أسلوب الحياة؛ و تعارض المصالح أو القوانين التنظيمية التشريعية، و الصراع حول السلطة. و لم يرد أحد التعمق في الأسرار أو المشاكل التي عاشوها بعيدا عن الوطن، و حسرات أولائك الذين ذهبوا بحثا عن حياة أفضل، و غم و آلام المستعمرة. هناك حكايات قليلة حول الحياة المدنية في منطقة الحماية. نجد فئة قليلة من الكتاب اهتمت بذلك؛ من بين الكتاب الذين أعطوا صورة غير عسكرية عن المنطقة، يبرز لويس أنطونيو دي بيغا لغزارة مؤلفاته، و الطابع الفنطاسطيكي الذي تميزت به أعماله، من مؤلفاته "الذين ينحدرون من سلالة حواء" (1941)، و"جواسيس على خارطة إفريقيا" (1943) أو "أبناء العريس"(1945).

الكتاب الذين خصوا طنجة بصفحات كثيرة، و بما أنها كانت منطقة دولية، عاشت على هامش الحروب، فإنهم أعطوا رؤية عن الحياة اليومية أكثر، كما كانت عليه الحياة الكولونيالية. و هكذا يمكننا ذكر "طنجة مونطيكارلو الصغيرة" (1924) للكاتب لوبيث ريبندا، "أوطيل طنجة"(1955) لطوماس سالبادور، "السوق الكبير" (1956) للكاتبة كارمين نونيل، "أموال إبليس"(1958)، للكاتبة بيلا خيمينيث، أو "الإغاري الطنجي"(1988) للكاتب م. دي لا سورولا. و فوق كل هذا يجب الحديث عن الكاتب الإسباني الكبير الذي كتب عن طنجة و هو أنخيل باثكيث. تتجمع فيه قيم الميكروكوسموس التي كانت تمثله طنجة الدولية، في سرد يتميز بجودة أدبية، و يمكننا إجماله في رواية استثنائية : "حياة الكلاب لخوانيطا ناربوني" (1976).

إن ما هو أساسي في الأدب، هو حرية المؤلف عندما يكتب. و كل واحد يمكن أن يسرد ما يريد و كيفما يريد. لا يمكن أن نلوم الروائيين الإسبان الذين يستعملون المشهد المغربي بطريقة أو أخرى. و في جميع الحالات يمكن نقد جودة نصوصهم. و لكن يمكن إثبات فعل مسلم به، لا يناقش: غياب روايات إسبانية تقدم لنا صورة عما كانت عليه الحياة في منطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب.

***أنطونيو كاراسكو غونثاليث كاتب إسباني. ولد بييرينا بإقليم باداخوس. حاصل على دكتوراه في القانون. باحث في شؤون المستعمرات الإسبانية بإفريقيا، و في قانون المستعمرات. كتب العديد من المقالات في الموضوع، و أصدر عدة أبحاث، نذكر منها : قانون المستعمرات بإفريقيا (2007)، تاريخ الرواية الكولونيالية الإسبانوإفريقية (2009)، و عن الرواية "انتظام في وادي موني" (2010).**